الفصل الرابع

ابن سينا والتراث العلمي

ويتضمن هذا الفصل العناصر والنقاط الآتية:

١ ـ اهتمام ابن سينا بدراسة المعادن والنبات (مدخل)

٢ ـ اهتمام ابن سينا بدراسة الحيوان (مدخل)

٣ ـ اهتمام ابن سينا بدراسة مجال الطب (مدخل)

obeikandl.com

obeikandl.com

ابن سينا والتراث العلمى

من واجبنا ـ كمفكرين وباحثين ـ أن نفاخر بالعلماء والمفكرين الذين عاشوا فى ظل الحضارة العربية والإسلامية. إننا إذا درسنا أى علم من العلوم التى تركوها، أو أى فن من الفنون، أو أى مجال من مجالات الأدب والفكر وما أكثرها فسنجد أن مفكرى العرب والإسلام قد تركوا بصمات ظاهرة وواضحة على كل فرع من فروع العلم، وعلى كل مجال من مجالات الأدب والفكر.

ونود فى هذه الدراسة أن نعرض لبعض مجالات التراث العلمى عند واحد من أشهر مفكرى وعلماء العرب والإسلام، وهو ابن سينا الذى ولد عام ٣٧٠هـ وتوفى عام ٤٢٨هـ، إن آراء ابن سينا فى كل مجال من المجالين تعد تعبيرا عن رفضه للفكر التقليدى، وهذا ما يكشف لنا عن عظمة ابن سينا وكيف كانت أفكاره تأثرا بالحضارة التى عاش فى ظلها، أى الحضارة العربية الإسلامية. إن ابن سينا يعد من أشهر المفكرين فى المشرق العربى، وخاصة إذا وضعنا فى الاعتبار أنه بالإضافة إلى كونه فيلسوفا ترك لنا العديد من الكتب الفلسفية العميقة غاية العمق، فإنه يعد عالما بكل ما تحمله هذه الكلمة من معانى ودلالات. ألف الكثير من الكتب التى تبحث فى العديد من المجالات التى تدخل فى مجال العلم، ومن بينها الطب والفلك والنبات والحيوان والمعادن إلى آخر هذه الموضوعات والمجالات العلمية[1].

ترك لنا ابن سينا الكثير من الكتب والرسائل التى تبحث فى مجال الطب. ومن أهم كتبه فى هذا المجال (كتاب القانون فى الطب) ذلك الكتاب الذى يعد

(١) راجع كتابنا: (مذاهب فلاسفة المشرق) ـ دار المعارف ـ القاهرة ـ الطبعة العاشرة.

أهم وأشهر كتاب فى مجال الطب على وجه الإطلاق، حتى أن ابن سينا قد عرف فى بلاد الغرب كطبيب أكثر من معرفته كفيلسوف، وذلك بسبب هذا الكتاب: كتاب القانون. ولو حللنا الموضوعات التى يبحث فيها ابن سينا داخل هذا الكتاب لوجدناه قد بذل أقصى جهد فى دراسة هذا المجال: مجال الطب، سواء من حيث دراسته لطرق الوقاية أو من حيث حديثه عن أعراض الأمراض وكيفية علاجها، أو من حيث تحديده للأدوية على اختلاف أنواعها ومدى فائدة كل دواء لأجسام المرضى. وسوف نشير إلى ذلك فى موضعه من المقالة.

وما يقال عن الجانب العلمى المتعلق بالطب عند ابن سينا وكيفية اعتماده على المشاهدة والتجربة، يقال عن دراسات ابن سينا للمعادن والآثار العلوية والنبات والحيوان وغير ذلك من مجالات تدخل فى إطار الجانب العلمى عند فيلسوفنا ابن سينا. إن دراساته لهذه المجالات كلها تبين لنا أنه كان يقيم آراءه على التفكير العلمى الدقيق، صحيح أن بعض المشاهدات والتجارب التى يذكرها ابن سينا فى كتبه التى تبحث فى هذه المجالات، قد وردت عند أرسطو أو عند شراحه المتأخرين، ولكن لابد أن نضع فى الاعتبار أننا نجد عند ابن سينا ذكرا لمشاهدات وتجارب جديدة استفادها لا من السابقين عليه، ولكنه قام بها بنفسه فى كثير من البلدان التى عاش فيها. ومعنى ذلك أنه كان يدلل على آرائه عن طريق الاعتماد على مشاهدات شاهدها بنفسه، وتجارب قام بها هو بنفسه. إنه فى دراسته للجبال ـ على سبيل المثال ـ يبين لنا أن الجبال تتكون من الأحجار، هذه الأحجار التى تتكون من الطين الذى يجف شيئا فشيئا، كما قد تتكون من الماء الذى يسيل حتى يتجمد ويترسب عنه مواد صلبة، أى تلك الأحجار، كما يعطينا ابن سينا ـ معتمدا على مشاهداته ـ أمثلة كثيرة يبين لنا فيها كيف تؤثر الحرارة والبرودة فى تكون الأحجار، ومن هنا يختلف تكونها من حيث السرعة والبطء نظرا لأننا قد نجد بلدة من البلدان تغلب عليها الحرارة وبلدة أخرى يغلب عليها البرودة.

وما يقال عن دراسة ابن سينا للجبال كظاهرة من الظواهر الجيولوجية يعتمد فى دراسته لها على المشاهدات والملحوظات، يقال أيضا عن آرائه حول الزلازل. إنه ينقد كثيرا من الآراء التى قيلت كمحاولة لتفسير وجود الزلازل، ثم يذهب من جانبه إلى أن سببها هو وجود أبخرة من الرياح أو النيران القوية، بحيث إن البلدان التى تكثر فيها الزلازل، إذا حفرت فيها آبار وقنوات كثيرة فإن الزلازل تقل فيها.

ولقد أدت دراسة ابن سينا للجبال والزلازل إلى دراسته للمعادن. ونستطيع القول بأن أهم موضوع أثاره ابن سينا حين دراسته للمعادن، هو موضوع الكيمياء؛ إذ أن من بحثوا فى الكيميا قديما كانت تدور بحوثهم حول التساؤل: هل من الممكن أن تتحول المعادن الخسيسة ـ أى قليلة القيمة كالنحاس مثلا ـ إلى معادن نفيسة كالذهب؟ أم ليس بالإمكان ذلك؟ إننا لو استعرضنا تاريخ العلوم عند العرب وجدنا رأيين حول هذا الموضوع، موضوع الكيميا.

الرأى الأول يذهب إلى أنه ليس بالإمكان ذلك التحويل[1]. وقد ذهب إلى ذلك ـ كما سبق أن أشرنا ـ كثيرون من بينهم الكندى وابن خلدون والبيرونى الذى كان معاصرا لابن سينا، وكذلك ذهب إليه فيلسوفنا ابن سينا. أما الرأى الثانى فإنه يذهب إلى أن بالإمكان القيام بذلك التحويل: تحويل معدن خسيس إلى معدن نفيس. ومن بين الذين ذهبوا إلى ذلك الرأى جابر بن حيان الذى كان يعد من أشهر علماء عصره. وإذا كان ابن سينا فى مجال دراسته للجوانب العلمية قد اهتم بدراسات جيولوجية كالجبال والصخور والأحجار والمعادن، فإنه لم يكتف بذلك، بل إنه درس أيضا الكثير من الظواهر الجوية، أى تلك الظواهر التى تحدث فوق الأرض لا تحتها. لقد درس هذه الظواهر وقدم لنا الكثير من مشاهداته وملحوظاته حول هذه الظواهر التى قام بدراستها. إنه ـ على سبيل المثال ـ يدرس ظاهرة السحب، ويبين لنا كيف أن السحب تتولد من

(١) راجع الفصل الخاص بالكندى من هذا الباب

الهواء أو الماء أو من الهواء والماء معا. إنه يقدم لنا الدليل على ذلك ويقول إنه شاهد ذلك بجبل طبرستان وبجبال طوس أيضاً.

هذا إن دلنا على شيء فإنما يدلنا على أن ابن سينا قد اعتمد فى دراسته على الملحوظات المنهجية العلمية والتى يقوم بعضها على التجارب. إن هذه التجارب تعد بعضها صحيحة إلى حد كبير. وإذ قلنا بأن المنهج الاستقرائى يعتمد أساسا على البحث والكشف ويتطلب الملاحظة والتجربة، فإن معنى ذلك أن ابن سينا قد أدرك بعض جوانب هذا المنهج وحاول أن يستفيد منه وأن يطبقه على المجالات التى قام بدراستها.

وإذا كان ابن سينا يقسم الموجودات إلى موجودات غير حية وموجودات حية. والموجودات غير الحية تشمل الجبال والصخور والمعادن وما يتعلق بها، والموجودات الحية تشمل النبات والحيوان والإنسان. إذا كان ابن سينا يفعل ذلك فإننا نود فى دراستنا لابن سينا كعالم أن نقف على دراساته للنبات والحيوان، وذلك بعد أن وقفنا على دراساته للموجودات غير الحية.

لقد اهتم ابن سينا اهتماما كبيرا بدراسته للنبات، بل إنه خصص له جزءا كاملا من كتاب (الشفاء) وهو أوسع كتبه وأهمها على وجه الإطلاق. لقد درس ابن سينا أكثر الجوانب التى يهتم عالم النبات بدراستها، فإذا رجعنا إلى كتاب (الشفاء) لابن سينا وجدناه يميز بدقة بين المملكة النباتية والمملكة الحيوانية ويبين لنا أوجه التشابه من جهة وأوجه الاختلاف من جهة أخرى. فإذا كنا نجد للحيوان أعضاء أصلية متشابهة الأجزاء وأعضاء مركبة، فإننا فى النبات أيضا يمكننا أن نميز بين اعضاء أصلية متشابهة الاجزاء كالخشب واللباب، وبين أعضاء مركبة كالورق والثمار والزهر. وإذا كنا نجد للحيوان حركة اختيارية وله أعضاء متميزة الأوضاع، فإننا نجد النبات ثابتا فى مكان واحد وليس له حركة تشبه حركة الحيوان. وإذا كنا نجد النبات يعتمد فى نموه على البذرة بالتدريج، فإننا نجد ذلك فى الحيوان.

وهكذا نجد ابن سينا حريصا فى دراسته لأعضاء النبات وتغذيته على المقارنة بينه من جهة وبين الحيوان من جهة أخرى، وهذه المقارنات التى قام بها ابن سينا وإن كان بعضها يعد خطأ إلا أن هذا لا يقلل من الجهد الكبير الذى قام به ابن سينا كعالم، وخاصة إذا وضعنا فى الاعتبار أن ابن سينا قد اعتمد فى بعض هذه المقارنات على المشاهدة والملاحظة.

ولم يكن ابن سينا مكتفيا بدراسته هذا الجانب فحسب، بل إننا لو تابعنا آراءه فى (كتاب النبات) وجدنا أنه يقدم لنا الكثير من الملحوظات العميقة غاية العمق حول تولد أجزاء النبات واختلافه باختلاف البلدان والغاية من كل جزء من أجزاء النباتات. كما نجد دراسة وافية للثمار والبذور والشوك بالنسبة للنباتات. إنه يعرض علينا خلال دراسته لهذه الجوانب عدة مشاهدات تتعلق بما يتولد عن النبات من الثمر والبذور والشوك. نقول مشاهدات لأنها اعتمدت على ما رآه ابن سينا فعلا، وحاول تعليله بناء على الظواهر التى ثبتت لديه. إنه يبين لنا كيف أن ثمار الشجر بعضها مكشوفة وبعضها مغلفة، كما أن هذا التغليف لا يوجد بصورة واحدة، بل يختلف من ثمرة إلى ثمرة أخرى، وما يقال عن الثمار من حيث اختلافها من شجرة إلى أخرى يقال عن النضج بالنسبة للثمار. إننا نجد ثمارا سريعة النضج، ونجد ثمارا تأخذ وقتا طويلا حتى تنضج. كما نجد بعض الثمار تنضج فى مواسم معينة، وثمارا تنضج فى أى فصل من فصول السنة. ونجد أيضا لهذه الثمار طعوما مختلفة؛ إذ لكل ثمرة طعم يختلف عن طعم الثمرة الأخرى. وهكذا نجد أن ابن سينا قد اهتم بدراسة كل ما يتعلق بالنبات ابتداء من نموه وحتى نضج ثماره. وقد كانت هذه الدراسة من جانبه قائمة فى أكثر جوانبها على أسس علمية نظرا لأنها تعتمد على الملاحظة والمشاهدة والتجربة.

نود بعد هذا أن ننتقل من دراسة ابن سينا للنبات إلى دراسته لنوع آخر من

الكائنات الطبيعية الحية، وهو الحيوان. لقد اهتم ابن سينا بدراسة الحيوان اهتماما لا حد له. فقد عرض فى الجزء الخاص بالحيوان من كتاب (الشفاء) لوصف مئات من أنواع الحيوانات، سواء كانت حيوانات مائية أو كانت حيوانات برية. إن الدارس لكتاب (الحيوان) لابن سينا، وهو الذى يعد جزءا من كتاب (الشفاء) يجد العديد من الملحوظات الصادقة البالغة الدقة من جانب فيلسوفنا ابن سينا، كما يجد ثروة علمية لاحد لها بين ثنايا صفحات هذا الكتاب. إن ابن سينا لم يقف عند حدود مذهب أرسطو وآرائه بالنسبة للحيوان، بل إنه اضاف آراء كثيرة إلى آراء أرسطو، إنه يقدم لنا مشاهدات وتحليلات وملحوظات خاصة به، وهذا يجعلنا نقدر جهد ابن سينا فى هذا المجال: مجال الحيوان، وخاصة إذا وضعنا فى الاعتبار أن ابن سينا لم تتوافر له فى عصره العدسات المكبرة والآلات الدقيقة وغيرها من أجهزة يعتمد عليها الدارس للحيوان فى العصر الحديث. لقد رأى ابن سينا ـ فى مجال دراسته لوجوه الاختلافات بين الحيوانات ـ أن الحيوانات تشترك فى أشياء وتتباين فى أخرى. مثال ذلك أن الإنسان والفرس يشتركان فى أن لكل منهما لحما وعصبا ولكنهما يتباينان فى أشياء كثيرة، فالأول مثلا ليس له ذنب، والثانى له ذنب. كما يبين لنا ابن سينا أن الحيوانات تختلف من حيث المأوى الذى تعيش فيه. إن بعضها يعيش فى الماء، وبعضها يعيش على اليابس. ومن الحيوانات ما تكون مائية ثم تتحول إلى أن تكون برية. بل إن الحيوانات المائية تنقسم إلى عدة أقسام. فمنها ما يغوص فى الماء، ومنها ما يلزم الشاطىء أو يعيش عليه. ومنها ما يعيش فى الطين، ومنها ما يعيش فى الصخر.

وهكذا يميز ابن سينا بين الحيوانات من جهة مأواها، بل إنه يميز أيضا هذه الحيوانات من جهة حياتها الاجتماعية. إن منها ما يؤثر الوحدة ومنها ما يؤثر أن يعيش فى جماعة، ويرى أن الإنسان من بين الحيوانات التى لا يمكنها أن تعيش بمفردها، نظرا لأن نظام حياته لا يمكن أن يتم إلا بالمشاركة الاجتماعية،

إذ أن الإنسان مدنى بطبعه. ويوجد من الحيوانات من يشترك مع الإنسان فى تلك الصفة إلى حد كبير، فالنحل والنمل يعيش فى جماعة، وإن كان النحل يطيع رئيسا واحدا، أما النمل فيجتمع بدون رئيس. وإذا كان ابن سينا قد درس أوجه الخلاف بين الحيوانات من جهة المأوى وكيفية المعيشة، فإنه لا يكتفى بذلك، بل إنه يدرس دراسة دقيقة كل ما يتعلق بأعضاء الحيوان كالعظم والغضروف والأعصاب والأوتار والشرايين ويقدم لنا ملحوظات شتى وتفصيلات لا حصر لها. بل إن فيلسوفنا ابن سينا يعقد عدة فصول فى كتابه (الشفاء) لتشريح أعضاء الحيوانات. إنه يتناول بالبحث تشريح حيوان حيوان من الحيوانات المائية، وكذلك تشريح البيض والفراخ، وتشريح الدماغ والعصب والعظام وأعضاء الرئة والحنجرة والقلب والمعدة والكبد، حتى إننا يمكننا أن نقول إن الصفة التشريحية تغلب على كثير من الفصول التى كتبها فى دراسته للحيوان.

ولكن لابد لنا من التنبيه إلى أن بعض دراسات ابن سينا التشريحية تعد دراسات بدائية من بعض جوانبها؛ إذ أن ابن سينا لم يتوفر له ما هو متوفر الآن فى عصرنا من آلات وأجهزة دقيقة غاية فى الدقة، إن التشريح عند ابن سينا يغلب عليه احيانا الطابع الوصفى، ولكنه يعد معبرا بصورة ما عن دقة ابن سينا، لأن هذا الوصف يقوم على الملاحظة، كما لا يخلو من تأثر بدراسات ابن سينا فى مجال الطب، ومن هنا فإنه يمكن القول بأن عمل ابن سينا كطبيب قد أثر على دراساته للحيوان، إن ابن سينا يستدل فى دراساته للحيوان بمشاهدات وملحوظات وتجارب كثيرة متنوعة، إنه حين البحث فى حس الحيوان وحركته وصوته ونومه، يقول إن الأسماك مثلا تسمع وتشم، والدليل على أنها تسمع أنها تهرب من الأصوات الشديدة، والدليل على أنها تشم أنها تجىء إلى المصيدة برائحة اللبن وغيره. إنها تغوص فى المصيدة التى يرمى فيها طعم ذو رائحة، وعن طريق ذلك يتم صيدها بسهولة.

وفيلسوفنا ابن سينا لا يقتصر على ذكر هذه الجوانب بالنسبة للأسماك فقط،

بل إنه يذكر الكثير من الملحوظات حول الضفادع والسلحفاة، ومن بين هذه الملحوظات ملحوظات شاهدها بنفسه. والواقع أن كتاب (الحيوان) لابن سينا ثرى ثراء كبيرا بمادته العلمية. إنه يعد موسوعة ضخمة فى هذا المجال: مجال الحيوان، بل مجال الطيور أيضا. إننا نجد عند ابن سينا إفاضة فى ذكر الأمراض التى تصيب الحيوانات والطيور، وخاصة إذا انتقلت من موطن إلى موطن آخر. إن هذه الحيوانات والطيور تصاب بالهزال الشديد وربما تموت، وهذا يرجع إلى اختلاف أجواء البلدان. فمن البلدان ما يغلب عليه الحرارة، ومنها ما يغلب عليه البرودة، وهذا قد أدى بابن سينا إلى أن يبحث فى هجرة الحيوان والطيور من مكان إلى مكان، مبينا لنا أن الهجرة سببها طلب الجو الدافىء والابتعاد عن الجو الذى يغلب عليه البرودة فى بعض فصول السنة. كما يذكر ابن سينا الكثير من المشاهدات التى تتعلق بطباع بعض الحيوانات وكيف أن الحرارة والبرودة تؤثر فى طباعه وعاداته فى المأكل والمشرب. إنه على سبيل المثال يذكر الكثير من أعمال وطباع النحل ويبين لنا كيف أن النحل يوزع أعماله فيما بينه فمن النحل ما ينقل المادة من الزهر، ومن النحل أيضا ما تكون وظيفته تليين هذا الزهر، ومن طباع النحل أنها إذا لدغت حيوانا وتركت إبرتها فيه ماتت، وربما تقتل النحلة من تترك إبرتها فيه، والنحل يعد من أنقى الحيوانات، ولذا فهو يكره الأشياء القذرة ويكره الروائح الدهنية، وأكثر عسله يكون فى الربيع والخريف، وما كان فى الربيع فإنه يعد أجود، كما أن النحل يشعر بالبرد والمطر، دليل ذلك أنه يلزم خليته وقت البرد والمطر.

وهكذا يمضى ابن سينا فى تحليل العديد من الظواهر، وذلك بأن يذكر لنا الكثير، والكثير جدا من الملحوظات حول طباع كل طير من الطيور وكل حيوان من الحيوانات. إن ابن سينا يؤيد هذا كله ـ كما سبق أن أشرنا ـ بما شاهده هو نفسه، وبتجاربه التى أجراها، بالإضافة إلى المعلومات الخاصة بالطيور والحيوانات التى سبق لأرسطو أن توصل إليها. إن ابن سينا يذكر الكثير من المشاهدات التى شاهدها فى مواضع متعددة فى بلاد فارس: مدنها وقراها. هذا

ما نجده عند ابن سينا من دراسات علمية تبين لنا أن هذا المفكر لم يقتصر على الجانب الفلسفى فقط، بل إنه درس الكثير من الجوانب العلمية. إننا نجد هذا العالم قد ترك لنا مئات الصفحات التى تبحث فى الطب كما تبحث فى الأجسام الطبيعية سواء كانت حية أو غير حية. إنه ينتقل من البحث فى الكيميا والمعادن والصخور والزلازل والبراكين والصواعق والبرق والرعد والأمطار كظواهر طبيعية غير حية إلى البحث فى النبات والحيوان كظواهر طبيعية حية؛ إذ أن النبات فى رأيه له نفس نباتية، ومن هنا كان موجودا حيا. وكذلك الحيوان له نفس حيوانية ومن هنا كان موجودا حيا. إن العالم إذا كان يقيم دراساته على أساس المشاهدة والتجربة والملاحظة ويستقرىء ظواهر الطبيعة، فإن ابن سينا يعد عالما من هذه الزاوية. صحيح أنه لم يتوصل إلى كثير من النتائج التى توصل إليها علماء عصرنا، ولكن كل عالم لا يقيم البناء كاملا، إنه يبنى أجزاء من البناء العلمى ويترك لمن بعده أن يستكمل تشييد البناء. وهذا ما نجده بالنسبة للفيلسوف وللعالم ابن سينا. ولقد توصل إلى بعض النتائج العلمية التى اختلف فيها مع أرسطو تارة واتفق معه تارة أخرى، وساهم فى بناء صرح العلم، ومن هنا كان من الضرورى إذا أردنا أن ندرس تاريخ العلوم عند العرب أن نخصص مساحة واسعة للعالم ابن سينا. وما يقال عن اهتمام ابن سينا اهتماما بالغا بالبحث فى موضوع النبات والحيوان يقال عن اهتمامه اهتماما لا حد له بالبحث فى مجال الطب، حتى إنه أصبح من أشهر أطباء العرب كما سبق أن أشرنا.

والواقع أن الحضارة العربية الإسلامية قد قدمت لنا مجموعة من الأطباء الممتازين ومن بينهم ابن سينا وابن رشد وأبو بكر الرازى إلى آخر هؤلاء الأطباء الذين بذلوا أقصى جهدهم فى البحث فى مجال الطب نظرا وعملا. ومن بين تلك الكتب (القانون فى الطب) لابن سينا (والحاوى فى الطب) للرازى (والكليات فى الطب) لابن رشد. وقد ترجمت إلى اللغات الأوروبية. إن ابن سينا ـ كما قلنا ـ اشتهر شهرة كبيرة لاشتغاله بالطب نظرا وعلما. إن

شهرته كطبيب أكثر من شهرته كفيلسوف، والدليل على ذلك أننا لو رجعنا إلى الموسوعات ودوائر المعارف وجدنا أكثرها يذكر حين حديثه عن ابن سينا لفظة (الطبيب) قبل لفظة (الفيلسوف) وهذا يدل على شهرته الفائقة فى مجال الطب.

ونود أن نشير إلى أن بحثه فى النفس يرتبط ببحثه فى الطب، إنه فى بحثه للطب لا يقتصر على النظر إلى الإنسان كمجرد جسم، بل ينظر إليه على أن له نفسا. لقد اشتغل ابن سينا أيضا بالطب النفسانى. وكثير من الروايات تبين لنا أنه قد أضاف إلى اهتمامه بالعلاج الجسمانى الاهتمام بالعلاج النفسانى والروحانى. واهتم ابن سينا بالطب منذ مطلع شبابه، وقد ترك لنا الكثير من المؤلفات والرسائل، على رأسها كتابه الضخم (القانون) وكان اشتغاله ـ رغم أنه يعد فيلسوفا ـ بالطب شيئا طبيعيا. قلنا إن ابن سينا ترك لنا كتبا كثيرة، من أشهرها على وجه الإطلاق كتابه (القانون) إن كتاب (القانون) يعد موسوعة ودائرة معارف بمعنى الكلمة، فلا يوجد مجال فى الطب إلا وبحث فيه ابن سينا، ويمكن القول بأن كتاب القانون يتكون من خمسة كتب أو أقسام. الأول منها يبحث فى الأمور الكلية النظرية العامة كالكلام عن التشريح وعلم الوظائف والأعضاء. كما بحث فى هذا القسم الأول فى العظام والعضلات والأعصاب والشرايين. أما الثانى منها ـ أى الكتاب الثانى من كتاب القانون ـ فإن ابن سينا قد خصصه للبحث فى القوانين الخاصة بالطب وقوى الأدوية.

أما الكتب أو الأقسام الثلاثة الباقية فإنها تبحث بطريقة تفصيلية فى الجوانب العملية الخاصة بحفظ الصحة، أى الوقاية، وأيضا فى العلاج، والواقع أن ابن سينا شأنه فى ذلك شأن الأطباء العرب قد اهتم بالجانب الوقائى أكثر من اهتمامه بالجانب العلاجى؛ فأطباء العرب كانوا يرون أن حفظ الشىء الموجود أى الصحة أفضل من البحث عن الشىء المفقود، أى البحث عن الصحة التى فقدها الإنسان نظرا لمرضه. وهذه تعد نظرة صائبة وصحيحة تماما، مازلنا نؤمن بها حتى اليوم، وذلك حين نقول: إن الوقاية خير من العلاج.

الواقع أن ابن سينا ـ كما قلنا ـ اهتم اهتماما بالغا بمجال الطب. إنه لم

يترك لنا فى الطب كتاب (القانون) فقط، بل إنه ترك لنا كما سبق أن أشرنا الكثير من الكتب والرسائل التى عرفها أطباء أوروبا بعد ذلك فى عصر النهضة. ومن هذه الرسائل رسالته فى الأدوية القلبية ورسالته فى النبض وغيرهما من رسائل بذل فيها ابن سينا جهدا لا حد له. وقد ترجمت رسالته الأدوية القلبية فى القرن الثالث عشر الميلادى واهتم بها أطباء الغرب كما اهتموا بكتاب (القانون) الذى أصبح المرجع الأساسى لتعليم الطب فى جامعات أوروبا لفترة طويلة استمرت أكثر من قرنين من الزمن. بل لا زلنا نجد دراسات عديدة فى الشرق والغرب معا تدور حول أهمية بحوث ابن سينا الطبية.

لقد اهتم ابن سينا بالملاحظة والتجربة. لقد قام بكثير من التجارب فى مجال الطب كما يفعل أطباء اليوم، ومن هنا كان سابقا عليهم، لقد كان اعتماد ابن سينا على التجارب منذ بداية تعلمه الطب هو الذى ساعده على أن يتقن الطب منذ بداية شبابه. فإذا رجعنا إلى سيرة ابن سينا التى كتبها بنفسه وجدناه يقول: وعلم الطب ليس من العلوم الصعبة، فلا جرم أنى برزت فيه فى أقل مدة حتى بدأ فضلاء الأطباء يقرأون علىَّ علم الطب، وتعهدت المرضى فانفتح علىَّ من أبواب المعالجات المقتبسة من التجربة مالا يوصف.

لقد اهتدى ابن سينا إلى نظريات كثيرة، لقد ابتكر الكثير من أوجه العلاج للكثير من الأمراض لقد قام بالكثير من الجراحات، وقال بآراء كثيرة حول أمراض السرطان وأمراض أورام المخ. لقد فرق بين حصاة الكلية وحصاة المثانة ووصف كل نوع منهما. فإذا رجعنا إلى كتابه (القانون) فى الطب وجدناه يقول إن حصاة الكلية ألين يسيرا وأصغر وأقرب إلى الحمرة، والمثانة أصلب وأكبر جدا وأقرب إلى الدكنة والرمادية والبياض، وإن كان قد يتولد فيها حصاة متفتتة، وأكثر من تصيبه حصاة المثانة نحيف وفى الكلية بالعكس، والصبيان ومن يليهم تصيبهم حصاة المثانة. ونقول هنا أيضا إن البول فى حصاة المثانة إلى بياض ورسوب ليس بأحمر، بل إلى بياض أو رمادية، وربما كان بولا غليظا زيتى الثقل، وأكثره يكون رقيقا وخصوصا فى الابتداء، والحصاة الصغيرة

أحبس للبول من الكبيرة لأنها تنشب فى المجرى. أما الكبيرة فقد تزول عن المجرى بسرعة. واعلم أن حصاة المثانة تكثر فى البلاد الشمالية وخصوصا فى الصبيان. . . هذه عبارة لابن سينا تبين لنا منها كيف كان هذا الطبيب حريصا على المشاهدة والملاحظة والتجربة. والواقع أن ابن سينا قد بذل جهدا كبيرا، سواء فى دراسته فى مجال النفس أو دراساته فى مجال الطب، وكان بذلك كله طبيبا وعالما من علماء النفس. ومن حقنا كمسلمين وعرب أن نفخر بالإنجازات العلمية الضخمة التى قام بها عالم من علماء العرب، عالم من علماء الإسلام، وهو ابن سينا الذى عاش واستظل بظل الحضارة العربية والإسلامية.

لقد قدم لنا ابن سينا الكثير من الآراء العلمية الناضجة، وإذا كنا نختلف معه حول رأى أو أكثر من الآراء التى قال بها، إلا أننا لابد أن نضع فى الاعتبار أن العلم أقرب إلى التراكمات، ومعنى هذا أننا لا يصح أن ننتظر من عالم عاش فى القرن الحادى عشر الميلادى أن يتوصل إلى آراء قال بها العلماء بعد تسعة قرون، أى فى القرن العشرين، فالأدوات قد اختلفت، وطبيعة المنهج العلمى حاليا ليست بالضرورة هى ما وجدناه عند ابن سينا. لقد بذل ابن سينا أقصى جهده، وكان مبتعدا عن الجوانب الخرافية التى تباعد بيننا وبين الجوانب العلمية. ومن هنا فإن بصماته فى التاريخ العلمى تعد بصمات واضحة وظاهرة، ومن حقنا كعرب أن نفخر به ونعتز بأكثر آرائه العلمية.

* * *